

المحاضرة الثانية عشر: الملاحظة والمشاهدة

الملاحظة: notice

تعتبر الملاحظة من الأدوات المهمة في عمليات دراسة حالات المبحوثين، عندما تكون قابلة للتحقق منها، وتبين الملاحظة مدى سعة تفكير الباحث، وإدراكه ووعيه لما يحدث معه ومن حوله، بما يمكنه من فهم سلوك الفرد أو الجماعة وظروفهم المحيطة مع استقراء ما يحدث من ردود أفعال، وذلك من خلال الربط بين المشاهد والمسموع والمحسوس والمدرَك).

وتشتمل الملاحظة على لحظة حدوث الشيء فيُلحظ في حينه (وقت حدوث الفعل) وهذه قد تكون عن رؤية، وقد تكون عن استماع مباشر واعي ومقصود، وقد تكون عن استقراء واستنباط، وتتركز الملاحظة على أهمية الحضور لكي تتم عملية المقابلة المباشرة للمصدر ذي العلاقة بالموضوع أو المشكلة قيد البحث أو الدراسة. كما تتركز على المعاينة لما هو محسوس بشكل مباشر أو غير مباشر، فكل ما يتم عن طريق الحواس الخمس هو مباشر، أما الذي يتم عن طريق الاستنباط والاستقراء فقد يكون غير مباشر، ولهذا يجب أن لا يغفل الباحث عن استقراء ما بين الأسطر، واستنباط المحمول في المضمون. ولهذا تعتبر الملاحظة الأداة الممكنة من التمييز بين الصدق واللغو، وبين ما يجب وما لا يجب. فعن طريق المعاينة السماعية يمكن الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو النفسي من التعرف على العلاقات السالبة والموجبة بين المواضيع. فحاسة البصر (العين) لا تشاهد الكلمات المنطوقة مع أنها تشاهد المكتوبة منها.

وحاسة السمع (الأذن) قادرة على ملاحظة المسموع وغير قادرة على التمكن من المكتوب، وبمشاهدة المكتوب يمكن أن يتم استنباط واستقراء ما ورائه من أغراض وغايات أو نوايا من خلال ملاحظة ما يحمله من مضامين تترك إدراكا.

ولذا فبالاستماع يمكن أن يتعرف الباحث أو الأخصائي على اتجاهات أو نوايا الطرف أو الأطراف المستمع إليها، وحتى فاقد حاسة البصر يمكن أن يكون شاهدا

مع أنه لم يكن قادراً على أن يشاهد شيئاً بعينه، فإذا أنصبت إلى حديث جماعة تتحدث عن فلسفة التغير الاجتماعي، فيمكن أن يلاحظ المنصت ما يرمي إليه الحديث من مرامي واتجاهاتهم حول هذا الموضوع، وكذلك يمكنه أن يلاحظ الوحدة التي بينهم، أو الاختلاف والتباين في وجهات نظرهم.

ولأنها الأداة المعتمدة على الحواس ودرجة سلامتها، فهي تتطلب من الباحث كفاءات وقدرات يمكن قياسها، هي:

أ - القدرة على الإنصات الواعي للآخرين وتفهم وجهات نظرهم.
ب - القدرة على التذكر والتصور والتخيل، والتفكير وفقاً لما هو متوقع وغير متوقع.
ج - القدرة على التمييز بين المعايير التي يحتكم الأفراد والجماعات والمجتمعات إليها.

د - القدرة على تحديد الرؤية لما يجب أن يحدث، ومتابعة ما يحدث بالفعل.
هـ - الاهتمام بجميع المتغيرات التي يمكن أن تؤثر على الموضوع المدروس، وتبني التفكير في المتغيرات الجديدة ووضع معايير لها.

أهمية الملاحظة:

- 1 . إنها تمكن الباحث من الاستقراء والاستنباط.
- 2 . تمكن الباحث من معرفة ردود الفعال.
- 3 . إنها تفيد في دراسة ديناميكية الأفراد والجماعات والمجتمعات.
- 4 . تمكن الباحث من متابعة التغيرات السلوكية ورصدها إيجابياً أو سلبياً.
- 5 . تمكن الباحث من الانتقال من المجرد إلى المشاهد عندما يكون عقله مبدعاً، فالذي اخترع السكن أو المقعد مع أنهما على البساطة بسبب معرفتنا بهما واستخدامنا اليومي إليهما إلا أن الذي اخترع كل منهما لا بد وأنه فكر بعمق في كيفية صناعة السكن أو المقعد من حيث ملائمة كل منهما للوظيفة التي اخترع من أجلها، وإلا على أي أساس صمما؟.

• أنواع الملاحظة من حيث دور الباحث:

تتقسم أنواع الملاحظة من حيث دور الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو النفسي إلى نوعين هما:
الملاحظ غير المشارك والملاحظ المشارك .

1-الملاحظ غير المشارك:

إنه الملاحظ العلمي الذي لم يختلط مع الملاحظين (المبحوثين) قيد الدراسة، ويجري ملاحظته ويسجلها دون أن تحس الجماعة المبحوثة بأنهم تحت المراقبة أو المشاهدة، مما يجعل تصرفاتهم تجاه الفعل الاجتماعي طبيعية، دون تكلف في السلوك.

وتجرى مثل هذه الملاحظات على الفرد وأعضاء الجماعة وعلى الأنشطة والبرامج، وعلى المواقف، وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة. فالأولى هي التي يقوم بها الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو النفسي مباشرة دون وسيط، وتتم عن بعد وكأن الأمر لا يعنيه في شيء، مع أنه منتهبه لكل ما يجري أو ما هو ملاحظ، كملاحظته للوحدات السكنية والحالة التي هي عليها، ومدى اهتمام السكان بنظافتها وجمالها، أو حين يلحظ سلوك جماعة من الصيادين أو الفلاحين أو المتظاهرين دون أن يشاركهم السلوك أو الفعل موضوع الملاحظة .

أمّا الملاحظة غير المباشرة فهي التي تتم عن طريق وسطاء قاموا بها في الزمن الماضي ولازال بعضهم على قيد الحياة، مع أن الموقف أو الموضع الذي اشتركوا في ملاحظته قد انتهى ولن يتكرر، فمن خلال إجراء مقابلة أو مجموعة من المقابلات معهم يتم التعرف على ملاحظاتهم السابقة، وتعتبر ذات أهمية للمقارنة أو لإجراء ملاحظات على أفعال حاضرة أكثر تركيزاً، أو اتساعاً من حيث المجال، وقد تكون مصادر الملاحظة وثائق وسجلات ومذكرات عامة أو خاصة، وقد تكون مصادر الملاحظة أشرطة مسموعة أو مرئية أو أجهزة حاسوب.

إن هذا النوع مهم جدا في الدراسات الاستطلاعية والدراسات المتعمقة في البحث الاجتماعي وخاصة في طرق مهنة الخدمة الاجتماعية، إلا أن هذا النوع محفوف بخطأ النسيان أو الزيادة من قبل الناقلين، لأن العنقة في معظم الأحيان لا دقة فيها.

2-الملاحظ المشارك:

هو الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو النفسي الذي يقوم بالملاحظة مباشرة من أجل تجميع البيانات والمعلومات، وقد يكون الباحث مشاركا كاملا، وقد يكون مشاركا ملاحظا.

المشارك التمام:

هو الذي يتحدد من خلال دور الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو الأخصائي النفسي أثناء ملاحظة سلوك المبحوث أو المبحوثين، وينبغي ألا يعرف العميل أو أعضاء الجماعة بأن هناك من يقوم بملاحظتهم، ويكون الباحث في هذه الحالة كأنه عضو أساسيا في الجماعة مما يستوجب عليه الإلمام باتجاهاتها وأهدافها والتفكير بتعاليمها وأساليب المعاملة فيما بينها ومع الآخرين، وأن يلتزم بتأدية طقوسها، خاصة إذا كانت جماعة دينية منغلقة على ذاتها، وأن يمارس مناشطها إذا كانت للجماعة مناشط تؤخذ اتجاهاتها، أو تهذب نفوسها، ويفضل أن يمتاز الباحث الاجتماعي بمرونة عالية في تعامله مع أعضاء الجماعة خاصة وأنه قد يتعرض لمواقف استفزازية، إذا لم يتم تقبله من قبل الجماعة، وإذا لم تثق الجماعة فيه كل الثقة.

أن الهدف من ممارسة هذا الدور من قبل الباحث الاجتماعي، هو التعرف على الاتجاهات والأساليب التنظيمية للجماعة، والمنهج التربوي الذي تنتظم فيه أو تنتظم عليه، والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، والمخاطر المترتبة عليها، أو الفوائد المحققة لها، وذلك من أجل أخذ عبرة يستفاد منها في الحياة العامة، وتنظيم

المجتمع، مع أن بعض أنواع التفاعل الاجتماعي يصعب أن يقوم الباحث بملاحظتها، وذلك مثل الممارسات الجنسية والاختلافات الأسرية، مع العلم أن هذا الدور يحتاج إلى وقت كافٍ وتدريب راقٍ حتى يتمكن الباحث الاجتماعي أو النفسي من الاقتراب إلى أعضاء الجماعة والتعرف على ما يكتّوه، أو يعلنونه فيما يتعلق بموضوع الملاحظة ودراسة الحالة.

المشارك الملاحظ:

هو الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو النفسي الذي حدد وسيلة الملاحظة كأداة هامة لتجميع المعلومات والبيانات من أعضاء الجماعة الذين يعرفون دوره المعلن بأنه المشارك الملاحظ، وينتشر هذا النوع كثيرا في الدراسات الأنثروبولوجية. وقد ترتقي درجة الثقة بين الباحث والمبحوثين أو المدروسين إلى درجة الصداقة التي ينبغي ألا تؤثر على موضوع الملاحظة. الميز والعيوب:

أولاً: الميز: من الميز المترتبة على هذا الدور الذي يلعبه الباحث (المشارك الملاحظ)، تقبل الجماعة للباحث والتعرف عليه باحثاً ميدانياً، وقد تنق في الجماعة إلى درجة إظهار كل ما هو كامن عندها من أفعال وسلوكيات وعادات وأعراف، من أجل عدم إحساسه بالغيرة، أو نتيجة اعتزازهم بما يمارسونه من سلوك وأفعال، أو نتيجة اعتبارهم لما هم عليه من قيم.

ثانياً المآخذ: إذا لم تقبل الجماعة الباحث وتنق فيه فقد تسلك أمامه سلوكيات مصطنعة حتى تظهر ذاتها بأنها مثال أمام الباحث (المشارك الملاحظ)، مما يجعل الأفعال والمناشط والأنوار التي تقوم بها أمامه ليست طبيعية بل مختلفة، وكذلك قد يندمج الباحث في الجماعة إلى درجة تأثره العاطفي بأدوار الجماعة فيتحيز إليها بشكل قد ينسيه دوره العلمي الذي جاء من أجله باحثاً ودارساً موضوعياً.

المشاهدة: observation

يقصد بالمشاهدة الوقوف عن كُتب على الشيء المراد رؤيته، بالانقصار على حاسة البصر (العين) في مشاهدة الأشكال والأعمال والسلوك والصور، وتُمكن الباحث من الوصف لما يشاهده.

وتوجد علاقة ترابط بين المشاهدة والملاحظة تتمثل في أن الملاحظة عميقة وواسعة، وتحتوي على الاستنتاج العقلي، أما المشاهدة فتحتوي على المعاينة بالعين للشيء، وذلك عن طريق تفحصه ككل وكجزء بنظرة فاحصة. أي أن المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكال والصور والأجسام، وحركتها والتعرف على مكوناتها (الأجزاء المكونة منها) بالتعرف على كل ما يمكن تصويره أو رسمه أو أنه في حالة حركة وامتداد.

لذا فالمشاهدة هي وسيلة على أهمية عالية للملاحظة، فمن مشاهدة جماعة منشط فني حر من أجل دراسة اتجاهاتهم قد نجد أن أحد الأفراد يرسم وردة أو زهرة أو غزالة، ونجد آخر يرسم رجلا على صدره أو على إحدى ذراعيه إخطبوط، ونجد ثالثا يرسم فتى وفتاة بينهما مودة، أو يرسم قلبا في وسطه فتاة، أو سيارة يركبها عروس وعروس. هذه مشاهدات يمكن أن يلاحظ من خلالها:

- أن الأول يحب الجمال ويلاحظ عليه أيضا الاثراج والمرونة والحياة المبهجة، وهو مبسما غير عبوس.

- ويلاحظ على الثاني الاتجاه الإجرامي والانحرافي وعدم احترام الآخرين.

- ويلاحظ على الثالث أن له حبيبة وقد يكون راغبا في زواجها وهي مركز اهتمامه.

هذه الاتجاهات الثلاث قد يتم التعرف عليها من الملاحظة وبواسطة المشاهدة. ويلاحظ أيضا العمق في كل حالة من الحالات الفردية السابقة، والتي ظهرت أمامنا من البداية كمشاهدات محدودة.

وإذا شاهدنا مباراة لكرة القدم، نشاهد أمامنا جماعتين في وسط الملعب بنوعين من الملابس الرياضية، ومرميين للهدف، بوسطهما حارسين وجمهور متحمس،

وتشاهد حركة اللاعبين وحركة تسجيل الأهداف. هذه المشاهدات التي تترتب عليها الملاحظات، والتي تمكن الباحث الملاحظ من معرفة درجة التعاون بين اللاعبين، والمهارات الفنية لهم ولياقتهم وقدرات تحملهم، وعلاقتهم بالجمهور وإصرارهم على الفوز، وكذلك يمكنه أن يلاحظ علامات الهزيمة، والفوز أو الإحباط في نهاية المباراة على أفراد الفريقين والمشجعين والمدرّبين حسب النتيجة لكل فريق.

تعتمد المشاهدة على ما تراه العين، ولكن ليس كل ما تراه العين هو حقيقة، وذلك لأن الظاهر قد لا يكون الباطن، ولهذا فالاعتماد على المشاهدة في القضايا العلمية، مسألة غير يقينية فيصعب التسليم بمصداقيتها، قال تعالى: {وَيَرَى النَّاسُ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ} ¹ فمن مشاهدة سلوكهم قد تعتقد أنهم في حالة سكر، ولكن بملاحظتهم عن قرب، قد لا يكونوا سكارى مع أن حركتهم فيها شبه من هذا الأمر. ولهذا فإن الاعتماد على حاسة البصر (العين) في المقارنات العلمية غير كافٍ، وليس دقيقاً، لأن إجماع الناس على حكم معين بمثل هذه الوسيلة غير ممكن. مما يستوجب استعمال وسيلة الملاحظة والمقابلة في عمليات البحث والدراسة، سواء إنشاء جمع المعلومات أو التحليل أو التشخيص أو العلاج الذي يمكن الأفراد والجماعات من أداء واجباتهم الاجتماعية وفق ما لهم من حقوق، وما عليهم من مسؤوليات تقاديرها لحبوب المشاهدات مصداقاً لقوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ يُرِيّٰ إِبْرَاهِيمَ مَكَوِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَا أَبْصُرُ الْأَقْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} ². فمن خلال المشاهدة برهن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إثباتاً أن القمر يغيّب ولهذا فهو الفاقد لصفة

الربُّ (الله عزَّ وجلَّ) أي فاقِدٌ لخاصيَّةِ البقاء وكذلك برهن إبراهيم إثباتًا أن الشمس فاقِدةٌ لخاصيَّةِ البقاء والديمومة التي أُخِصَّ الله بها.

علاقةُ المشاهدة بالملاحظة:

تُرَتِّبُ الملاحظة بالموضوع ولا تتفصل عنه، لأنها إذا انفصلت عنه تُصبح غير علمية وبدون معنى محدد لها. فإذا افترضنا أن الموضوع هو: (مدى تمسك سكان مدينة من المدن العربية بارتداء الزيِّ (الملبس) الوطني)، فإن ذلك يستوجب على الباحث ملاحظة ومشاهدة سكان المدينة في أماكن مختلفة وأوقات مختلفة، وقت العمل وأماكنه وفي المدارس والجامعات والمناسبات الدينية والأعياد الوطنية والأعراس وحفلات الختان والمآتم وفي الشوارع العامة وأيام العطلات وأماكن الترفيه. فإذا ذهب الباحث إلى المصيف البلدي وشاهد المصطافين بدون زيهم الوطني فهذا لا يعني عدم تمسكهم به، ولكنه يعني أن طبيعة المكان لا تستوجب ارتداء الزيِّ الوطني، بل إنه لو شاهد أحد المواطنين يرتديه وهو مع المصطافين على الشاطئ فإنه يلاحظ إخلالا بالذوق العام، وعدم احترام الزيِّ الوطني، وإذا شاهد أحد أساتذة الجامعة العرب أو المسلمين بشكل عام يرتدي ملابس البحر القصيرة وهو في الفصل الدراسي أو المدرجات الجامعية، فإنه يلاحظ عليه عدم احترام الأستاذ للمكان الجامعي ولطلبة الجامعة. وتختلف المشاهدة عن الملاحظة في المثالين السابقين، الملابس تُشاهد وتميَّز، أما الاحترام والتقيّد بالذوق العام يلاحظ ولا يُشاهد. وإذا ذهب الباحث لمشاهد والملاحظ إلى مأتم وشاهد امرأة ترتدي ملابس عروسة، يلاحظ أنها خارجة عن الموضوع، لأنها لم تتقيّد بالظرف الزماني والمكاني والموضوعي للزيِّ الذي ترتديه، ولم تحترم المناسبة وشعور الآخرين، وإذا شاهد بعض الأفراد يسبحون بالزيِّ الوطني بالمصيف العام يلاحظ عليهم أيضا عدم احترامهم للزيِّ الوطني الذي يجب ألا تقدم له الإهانات.

الملاحظة ليست هي المتوقعة عند حد الصور والأشكال كما هو حال المشاهدة، بل الملاحظة تتعداها إلى المعاني والألفاظ، وما يحاول أن يخفيه أو يظهره المبحوث أو المبحوثون المدروسة حالاتهم (أثناء إجراء المقابلات).

فهذا الأمر لا يتحقق بالمشاهدة التي تقتصر على رؤية الصورة والنظر إليها، بل بالملاحظة التي بها يتجاوز الباحث حد الوقوف عند مشاهداته للصور والأشكال والسلوك والحركة إلى ما يخفى وراء كل منها، فالتناقض في الحديث والتلعثم والخجل والتظاهر بالبراءة والتظاهر بالخوف والخوف الحقيقي والمحبة والتظاهر بالمحبة والانتطواء والاكتماب والتشاؤم ومحاولة إنكار الانفعال والغضب، وإظهار الفرح والمرح كل هذا لا يمكن مشاهدتها، ولكن من الممكن ملاحظتها.

المشاهدة تقتصر على رؤية المنبسط فرحة، أو الباكي حزنا، ولهذا فلباكي يشاهد، وبكائه يلاحظ، وكذلك السعيد يشاهد، وسعادته تلاحظ.

وعليه ليس كل ما يلاحظ يشاهد، ولكن كل ما يشاهد يمكن أن يلاحظ ما يخفى ورائه. إن قوة العلاقات بين أفراد الأسرة أو الأمة لا يمكن مشاهدتها، ولكن بالإمكان ملاحظتها، وممارسة الحرية لا يمكن مشاهدتها، ولكن من الممكن ملاحظتها من خلال مشاهدة سلوك وأفعال الممارسين لها، ولذا مع أن للحرية أساليب لممارستها في سلوك عن طريق اللجان والمؤتمرات والبرلمانات والجمعيات، والتنظيم الاقتصادي من خلال الملكية العامة والخاصة، وديناميكية الإنتاج التي يمكن مشاهدتها كتعبير عن الحرية؛ إلا أن التعبير المعطن عنها من قبل الحكومات من خلال المشاهدة قد لا يعبر عن مصادق، ومن خلال الملاحظة قد يثبت عكس ما يقال أو يكتب، فعن طريقها قد تكون الحقيقة أن الدولة التي تدعي ممارسة الحرية عن طريق جلسات المجالس والبرلمانات التي يمكن مشاهدتها بالنقل المباشر من خلال شاشات الإذاعة المرئية وشبكات الانترنيت، يلاحظ أنها نظاما كبحيا أو سلقيا أو طبقيًا أو غيره.

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لإثبات الحقائق والمصانق، وتكون الملاحظة خير دليلاً وشاهد عليها، هذا وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة إلى جانب توليد المشاهدات، فالعمليات العقلية هي: تلك التساؤلات والافتراضات أو الانتقادات والتوقعات، وكيفية تقادي المواقف، وكيفية اختيار الأساليب ومراعاة الظروف المناسبة. أي أنها الحوار الذي يتم بين الإنسان كباحث وذاته، والمبادئ العلمية حول الموضوع والأهداف مع مراعاة الفرد أو الجماعة أو المجتمع قيد البحث والدراسة، والأساليب الدفاعية التي قد تحول دون الملاحظة أو تعرقها، وهكذا تتولد المشاهدات والملاحظات بعضها من البعض، مما يجعل المشاهد ينتقل من المشاهد إلى الأسرار التي وراءه والعلاقات المكونة لعناصره، قال تعالى: { قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ }³. إنه أمر لمشاهدة آياته في السماء وهي النجوم والكواكب من خلال النظر إليها، التي تُشاهد حركتها وضوؤها الجميل، وبالمشاهدة يلاحظ أن هناك علاقة، وأن هناك قدرة ورأيا، وأنها علامات يمكن الاهتداء بها في تحديد الاتجاهات ليلاً ونهاراً وفي البر والبحر، وهذه مشاهدات تولدت من خلال الملاحظة والمشاهدة، وهكذا تتولد المشاهد من المشاهد، وتتولد الملاحظة من الملاحظة، فمن مشاهدة الشمس يشاهد الشروق والغروب، ومن مشاهدة القمر يشاهد الشمال والجنوب، ومن مشاهدة الجبال والمخلوقات يلاحظ أن من ورائها خالق، وهكذا تتولد الفكرة من الفكرة لتلاحظ أو نشاهد ما يترتب على الفكرة وتوليدها.

تعتبر الملاحظة والمشاهدة أحياناً أداتان هامتان لوسيلة المقابلة. لأنه من خلال المقابلة يمكن مشاهدة المبحوث وتصرفاته، ويمكن ملاحظة ردود أفعاله على الأسئلة المطروحة عليه من قبل الباحث أو الأخصائي الاجتماعي أو الأخصائي النفسي.

في كثير من الأحيان نضع الملاحظة الباحث المشاهد في حالة شك، حيث خدعة الحواس، مما يجعل الشك في البعض المسموع، والبعض المشاهد، فسلامة البصر وقوته ليست واحدة، وبالتالي يجب أن لا يثق الأخصائي في كل ما يقوله المبحوث سواء أكان فردا أم جماعة.

ولأن الملاحظة ترتبط بالظاهر سلوكا وحركة ومتحركا، فلا ينبغي أن يعتمد عليها في إصدار الأحكام، خاصة أثناء إجراء المقابلات مع أصحاب الحالات الشاذة أو الإنحرافية، فعلى سبيل المثال: مشاهدة الأخصائي الاجتماعي أو النفسي للمبحوث وهو يبكي أثناء المقابلة، فمن خلال الملاحظة يمكن إثبات أن هذا البكاء ليس على صادق، ولكنه لاستمرار عطف الأخصائي الاجتماعي أو النفسي، نتيجة الحيل الدفاعية للمبحوث ونكائه في التأثير على الباحث أو الدارس لحالته وتجميع الموضوع.

كما أن مشاهدة المسؤولين وهم في ثياب رثة بالية قد تظهر للوهلة الأولى ظروفهم المعوزة، ولكن إذا أخضعوا للملاحظة، قد يكونوا عكس ما يشاهد تماما لأنهم اختاروا أقصر الطرق للعيش بدون مقابل، ومع ذلك فإنما السائل فلا تهر. وهكذا تكون الملاحظة اختبارية للمشاهدة، وتكون المقابلة اختبارية للملاحظة، فكل ما يلاحظه الباحث يمكن أن يتم اختبار مصداقيته من عدمها بالمقابلة. وتختلف الملاحظات والمشاهدات العلمية عن الملاحظة والمشاهدة العابرة التي تواجه الإنسان كل يوم، والتي قد تثيره في وقتها لاحتوائها عنصر المفاجأة أو التي نعرف عليها في الماضي وتتكرر من حين لآخر مثل مشاهدته السحب والأمطار، ومعرفته لها كما هي مشاهدة، ولا يعرف العلاقة بين السحب ومكوناتها والقوة التي تذيبها فتسقط مطرا، وأنه يشاهد البرق ولكنه لا يعرف القوة المولدة له، أما الملاحظات والمشاهدات العلمية المقصودة فهي تحدث وفق خطة وانتباه واع وتتبع دقيق، وتتعلق من موضوع وتحقق أهدافا.

تُعتبر الملاحظة، والمُشاهدة من الأدوات المهمة في البحث العلمي عندما تكون قابلةً للتحقق منها، والملاحظة ليست هي المُشاهدة مع أنهما يتدخلان كثيراً. إلا أن الحديث عن الملاحظة لا يعني تطابق مفهومها مع ما تعنيه المُشاهدة، في الوقت الذي تشمل فيه الملاحظة على المُشاهدة باعتبارها جزءاً منها، مما يجعل الحديث عن المُشاهدة لا يفي بأغراض الملاحظة ومضامينها.

فالمُشاهدة هي الوقوف عن كثب على الشيء المراد رؤيته، لأنها مقتصرة على العين في مُشاهدة الأشكال والأفعال، وتمكن الباحث من الوصف لما يشاهده. والملاحظة هي الربط بين المُشاهد، والمسموع، لأنها الأداة المستعملة لحاسي السمع، والبصر، والعقل في وقت واحد، فيلاحظ الإنسان بأذنيه كما يلاحظ بعينه، ولكنه لا يستطيع المُشاهدة بحاسة السمع.

الملاحظة تشمل على لحظة حدوث الشيء فيلاحظ في حينها (وقت حدوث الفعل) وهذه قد تكون عن رؤية، وقد تكون عن استماع مباشر واع ومقصود، وتتفق المُشاهدة والملاحظة على أهمية الحضور، لكي تتم عملية الرؤية المباشرة للمصدر ذو العلاقة بالموضوع.

المُشاهدة تحتوي على المعاينة بالعين للشيء بالمُشاهدة، وذلك عن طريق تفحصه ككل، وكجزء بنظرة نافذة. أي أن المعاينة بالمُشاهدة تتم للأشكال، والصور، والأجسام، وحركتها والتعرف على مكوناتها.

إن الملاحظة تمكن الباحث من استقراء التاريخ، واستنباط العبر منه، فعن طريق مُشاهدة الآثار والنفوش والزخارف والوثائق، يتم التمكن ملاحظة من التعرف على أحداث أو حضارات قد سادت وبادت. فمعركة أحد على سبيل المثال: قد دارت وانتهت من زمن المُشاهدة، ولكنها باقية لزمن الملاحظة من خلال أثارها، وما كُتب عنها؛ وكذلك أن الرومان قد احتلوا ليبيا وطردوا منها بعد اقتتال عنيد وجهاد ثمين، وكل ذلك انتهى من زمن المُشاهدة، ولكنه بقي لزمن الملاحظة، من خلال مُشاهدة

الآثار الرومانية وسجلات الجهاد الليبي، والوثائق الدالة على ذلك. ولهذا الملاحظة أداة مهمة جدا فهي تُمكّن الباحث من التعرف على المعلومات الظاهرة، واستنباط ما يخفي أحيانا من خلال قدرة الباحث على ربط العلاقات بين المتغيرات، والتناقضات حول القضايا المطروحة للبحث والدراسة. وتُسَهِد الملاحظة معرفة الموضوع، وعناصره من الأفراد والمجتمعات مما يجعل الملاحظة تُمكّن الباحث من تفسيره الموضوع ، وفي هذه الحالة تختلف عن المشاهدة التي تشبه آلة التصوير والنسخ لأنها تصوّر أو تنسخ المشاهدة فقط، مما يجعلنا نقول: أنّ صورة الشيء لا يمكن أن تكون الشيء ذاته، فإنّا أختلف عن صورتي، وصورتي من ورق، وأنا من صلصال، ويرتبط نجاح وفشل الباحث الملاحظ، أو المشاهد بقدراته واستعداداته ومهارته، وخبراته، وسلامة حواسه، فكلما كان الباحث أكثر قدرة على الانتباه والفتنة كانت ملاحظاته ومشاهداته ناجحة.

الملاحظة تفسيرية إلى جانب كونها وصفية، لأنها تعتمد على الحس والعقل، وتتعلّق بالظاهرة، والكامن .

أما المشاهدة فهي أداة استطلاعية، وتقتصر على الوصف، أي أن المشاهد تصف السلوك، والملاحظة تصف ما يترتب عليه من ردود أفعال أو انفعالات وانفعالات، وهي كذلك تُفسّر بنظرة اختبارية فاحصة، وتصفه بوعي.

ولذا فالملاحظة والمشاهدة هما أداتان هامتان لوسيلة المقابلة أي من خلال المقابلة يمكن مشاهدة المبحوث وتصرفاته، ويمكن ملاحظة ردود أفعاله على الأسئلة المطروحة عليه من قبل الباحث.

أهمية المشاهدة:

- 1 . بها يُمكّن الباحث من الوقوف على المشاهد حقيقة مباشرة.
- 2 . تُمكّن من تحقّق المشاهد وإخضاعه للتجربة والقياس.
- 3 . تُمكّن الباحث من تقويم سلوك المبحوثين.

4. تُمكن الباحث من أن يكون باحثًا مشاركًا.

5. تُمكن الباحث من الانتقال إلى أن يصبح ملاحظًا لما شاهد من سلوك أو أعمال أو صورٍ وأشكالٍ، أي أنها تنقله من المشاهد إلى المجرد، قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ} ⁴، أي لا ينبغي الوقوف عند حد النظر إلى الإبل أو السماء أو الجبال أو الأرض، بل ينبغي أن يتعداه عقل الإنسان إلى معرفة الكيفية التي بها خلقت الإبل ورفعت السماء ونصبت الجبال وبسطت الأرض.

خطوات الملاحظة والمشاهدة:

إن للملاحظات والمشاهدات العلمية خطوات محددة يتم استخدامها في البحث والدراسة، وهذه الخطوات هي:

أ - اختيار الموضوع وتحديدِه وفق أهداف واضحة ومحددة، لأن نقطة الانطلاق للملاحظة أو المشاهدة هي أهمية الموضوع الذي يتم اختياره فبدون موضوع لا يمكن أن تكون الملاحظة هادفة وجادة، فالموضوع هو الإطار العام الذي تتبلور فيه الأفكار، وتُسبب منه الفروض وتتمركز فيه متغيرات مشكلة البحث، مما يجعل الملاحظة، أو المشاهدة مرسخة في الموضوع ومنطقة منه ومثيرة له.

ب - تحديد وحدة الاهتمام: سواء أكان فردًا أم مؤسسة أم مزرعة أم مصنعًا أم غيره وغيره كثير، ولكن لا يتم تحديد وحدة الاهتمام إلا بعد تحديد المجتمع الذي أخذت وحدة الاهتمام منه. وإذا كان وحدة الاهتمام فردًا فينبغي أن يحدد إن كان ذكرًا أم أنثى، صغيرًا أم كبيرًا، ثم تحديد صفاته، هل هو مدرس أم مدرسة؟ وما علاقة الصفة المستهدفة بالملاحظة والمشاهدة بنوع المهنة أو الحرفة.

وقد تكون وحدة الاهتمام الاثنين ذكر والأنثى، أو الذكرين أو الأنثيين، أو الطرفين، أو الدولتين، وقد تكون وحدة الاهتمام حالة زواج، أو طلاق، أو قضية دينية، أو قومية، أو حالة شذوذا جنسيا، وقد تكون وحدة الاهتمام دورا مثل دور الزوجة، أو دور الزوج، أو دور المعلم والتلميذ، مما يجعل الباحث يهتم بمشاهدة وملاحظة السلوك والفعل للاثنين المشتركين في الموضوع، مع مراعاة متغيرات اللغة، والدين، والجنسية، والمهنة، واللون، والظرف لكلا الطرفين. وقد تكون وحدة الاهتمام جماعة، قد تكون نشاطا فنيا، أو رياضيا، أو مسرحيا، أو أدبيا، أو ثقافيا، فمن خلال ممارسة الجماعة لهذه المناشط يمكن ملاحظة أفعالها وسلوكياتها والأثر المتبادل بينها. وقد تكون وحدة الاهتمام مجتمعا محليا، أو قرية، أو مدينة عندما يستهدف الباحث ملاحظة ومشاهدة الأساق الاجتماعية، واتجاهات المجتمع واهتماماته، وتضمناته في العمل وفي المناسبات العامة، وفي البناء والعمار.

ث - تحديد الظرف المناسب لإجراء الملاحظة والمشاهدة: ولأن الموضوع يتأثر ويؤثر في الظرف الزماني والمكاني لذا ينبغي على الباحث إجراء الملاحظة، والمقابلة في الظروف الطبيعية لها، لكي يتحصل على معلومات غير متأثرة بظروف خارجية، فإذا أراد مشاهدة أو ملاحظة دور المدرس في الفصل، فلا ينبغي أن يأتي للفصل في وقت إجراء الاختبارات للطلبة، أو أثناء معاناة المدرس من زكام حاد، وإذا أراد أن يلاحظ درجة السمو التي تحدث للفنان عند انسجامه مع أنغام الموسيقى، لا ينبغي أن يتخذ مكانا مزدحما، فإن اتخذه يجد نفسه جالسا في وسط من الضوضاء والتشويش الذين لا يمكنه من المشاهدة والملاحظة الموضوعية.

ث - تحديد نوع العلاقة المناسبة الموضوع: قد تكون العلاقة بين الباحث والمبحوثين علاقة ثقة تطمئن فيها الجماعة، أو الفرد للباحث، وتتقبله وتحترمه، وتمكّنه من الحصول على المعلومات المستهدفة بالبحث، وقد ترتقي العلاقة بين

الباحث والمبحوث إلى درجة الصداقة التي لا تُخل بالمبادئ المهنية للبحث العلمي، وقد يفضل الباحث أن لا ترقى العلاقة إلى درجة الصداقة حتى لا تؤثر على الموضوع، مما يجعله ملاحظا ومشاهدا عن بعد ، وقد تكون العلاقة رسمية، وهكذا كل شيئا يتحدد موضوعيا.

ج - تحديد كيفية وأسلوب التسجيل: إن الملاحظة العلمية دقيقة وكثيرة ومرتبطة على بعضها بعضا مما يستوجب تسجيلها حتى لا تُضيع بدون جدوى، إلا أن التسجيل مسألة فنية من حيث التقنية، ومن حيث الأسلوب، فقد يستوجب الموضوع أن يكون التسجيل أثناء زمن حدوث الفعل أو السلوك المشاهد والملاحظ، وقد يتطلب الموضوع أن يكون التسجيل في نهاية المشاهد والملاحظة، وقد يكون التسجيل بعلم المبحوث، وقد لا يكون بعلمه.

الميز والمآخذ على أسلوب التسجيل:

1- من ميز التسجيل أثناء زمن الملاحظة أو المشاهد أن الباحث يسجل ملاحظاته في وقتها، وبالتالي لا ينسى شيئا منها، ولن تُضيع منه أية مشاهدة قد حصلت، وهي مهمة جدا في تفسير السلوك، والفعل الاجتماعي، وكذلك فالتسجيل يزود الباحث بالمعلومات المهمة للبحث.

2- ومن عيوب التسجيل: قد يجعل الباحث منغمسا في تفسير ما يشاهده أو الاتهامات في التسجيل المطوّل، مما يجعله غافلا عن بعض المشاهدات والملاحظات التي قد وقعت أثناء التسجيل وقد لا تتكرر وهي هامة أيضا.

ومن العيوب قد يتحسس المبحوث من التسجيل ويتخوف من نتائجه وبالتالي قد يمتنع عن ممارسة بعض الأفعال أو السلوكيات، أو قد يُصنع سلوكا ليس من طبيعته لأجل أن يجرّ الباحث خارجا عن الموضوع ومثار اهتمامه، وكذلك قد يتوقع أن الباحث متحسسا عليه فهتّز الثقة بينهما.

ميز الملاحظة والمشاهدة:

- 1- تمكن الملاحظة، والمُشاهدة الباحث من رؤية المبحوث، والاستماع إليه.
- 2- مشاهدة الأفعال والسلوكيات المختلفة، وملاحظة التفاعلات، والانفعالات والنوايا والمقاصد في وسطها الطبيعي الذي لا تُحقّقه المعامل والمختبرات.
- 3- تُعطي الباحث فرصة للتأكد من الأشياء الممكنة مشاهدتها.
- 4- تمكن الباحث من التعرف على مشاكل المبحوثين واستقراء ردود أفعالهم.
- 5- إنها وسيلة لاختبار إجابات المبحوثين التي أدلوا بها عن طريق الاستبيان أو استمارة المقابلة، وذلك لأن الفعل قد ينطبق مع القول، وقد يخالفه.

الْمَأْخَذُ عَلَى الْمُلَاحَظَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ:

- 1- قد لا يعبر الفعل والسلوك المشاهد عن النوايا والمقاصد الباطنية، أي قد لا تكون هناك مصداقية بين الفعل والموضوع.
- 2- قد تدخل آراء الباحث الخاصة في تفسير الموضوع أو الأفعال المُشاهدة والملاحظة، وإصدار تعميمات أو أحكاما عليها.
- 3- قد يتأثر الباحث برؤية الجماعة خاصة إذا كانت منغلقة على ذاتها مما يجعل الدراسة فاقدة لمبدأ المهنة العلمية والموضوعية، كأن يشارك جماعة دينية متزمتة، أو جماعة متطرّفة، فإذا تأثر فإنه يكون منحازا لرؤية خاصة، وإذا مارس أفعالهم فقد يكون تحت طائلة القانون مجرما.
- 4- إن الملاحظة بالمشاركة قد تتعارض مع القوانين، والأعراف، والأديان، لأن مشاركة الباحث للجماعة التي تتعاطى المخدرات في ارتكاب الفعل تجعله في قائمة المنحرفين، وليس ضمن قائمة الباحث العلميين، وكذلك مشاركته الشواذ جنسيا في ارتكاب الفعل لا يعتبر ميزة للملاحظة والمُشاهدة بالمشاركة بل عيبا أخلاقيا لا يرضيه المجتمع السوي.
- 5- لا تقيد المُشاهدة والملاحظة أحيانا في دراسة الأزمات والاختلافات الأسرية.

6- خدعة الحواس (النظر والسمع) مثل الطبيب الذي أحضر بولا سكرا وخمس أحد أصابعه فيه ليُذوّقه أما طالبة كلية الطب، وطلب منهم أن يفعلوا ما فعل ليُذوّقه واحد بعد الآخر، فقاموا بذلك عن مضض، وبعد انتهاء التجربة اتفق الجميع أن البول السكري حلو المذاق، فابتسم الطبيب قائلاً:

لقد فعلت ذلك لأعلمكم الدقة في الملاحظة فلو شاهدتموني بعناية لكان من الممكن لكم ملاحظة ما فعلت، لقد غسست إصبعي الأول في البول بينما وضعت أصبعي الثاني في فمي⁵.